﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

[البقرة: 177]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين اخـتـلاف أهـل الـكـتـاب في الـكـتـب، واختلافهم في القبلة

"لمَّا اختلفَ النّاس في أمر القبلةِ واهْتمُّوا بشأنها، بأنْ حصروا البرَّ والخيرَ كلَّه فيها، أشارَ سبحانه إلى تخْطئتِهم، ونبَّهَ على البرِّ الحقيقيّ، والخيرِ الذّاتيّ بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾، أي: ليست الخصالُ السّنيّة والأخلاقُ المرضيَّةُ، مجرَّدَ ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مثلًا، بلا اتِّصافٍ بالعزائم والحِكَم المترتِّبة على تشريع القِبلة"[1]، ولكن البرَّ الحقيقيّ هو مجموعُ قضايا الاعتقاد الصّحيح والخُلُق القويم والعبادات التي لا يُسمّى المسلمُ مسلما إلاّ بها.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأبـرار هـم الّذين يطيعون الـلـه تـعـالى، ويخشونه

1) ﴿ٱلْبِرَّ﴾: أصل مادّة (بَرر): الصّدْقُ، وَبَرَّتْ يَمِينُهُ: صَدَقَتْ، وَتَقُولُ: حجَّةٌ مَبْرُورَةٌ، أَيْ: قُبِلَتْ قَبُولَ العَمَلِ الصّادِقِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: يَبَرُّ رَبَّهُ، أَيْ: يُطيعُهُ، وَهُوَ مِنَ الصّدْقِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللّٰهِ تَعالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 177][2].

(1) نخجوانّي، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/63، والبقاعي، نظم الدّرر: 3/1، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/104.

(2) مقاييس اللّغة: (برر).

والبِرُّ: اسْمٌ جامِعٌ لِلطّاعاتِ، وللخير ولكلِّ فعل مرضيٍّ، وهو ضِدُّ الفُجُورِ والإثْمِ، فَدَلَّ على أَنَّهُ اسْمٌ عامٌّ لِجَمِيعِ ما يُؤْجَرُ عَلَيْهِ الإِنْسانُ، وَأَصْلُهُ: مِنَ الِاتِّساعِ، وَمِنْهُ البَرُّ الَّذِي هُوَ خِلافُ البَحْرِ لِاتِّساعِهِ[1].

التّوجُّه المكاني ليس دليلًا على البِرّ، وليس هو الأصل في العبادة

2) ﴿قِبَلَ﴾: ظَرْفُ مَكانٍ، تَقُولُ: زَيْدٌ قِبَلَكَ، أي: هو في المَكانِ الَّذِي هُوَ مُقابِلُكَ فِيهِ، وقد يُتَّسع فيه، فيكون بمعنى: العنديّة المعنويّة، تقول: لي قِبَلَ زَيْدٍ دَيْنٌ[2]، قال السّمين الحلبيّ: "وقوله: ﴿قِبَلَ﴾ منصوبٌ على الظّرفِ المكانيّ بقوله: ﴿تُوَلُّواْ﴾، وحقيقةُ قولك: (زيدٌ قِبَلك)، أي: في المكانِ الّذي قبلك فيه"[3]، ويأتي بمعنى: الجهة، وعند، والطّاقة والقدرة، وهو في الآية على المعنى الأوّل[4].

الإحسان إلى اليتامى من شرائط البرّ

3) ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: "واليتم في الآدميين: من قِبَل الأب قبل البلوغ"[5]، "وهم من اجتمع فيهم شرطان: الصّغر، وفَقْدُ الأب"[6]، و"الْيَتَامَى: جمع يتيم، على غير قياس، والفعل منه يتِم - بالكسر - يُتْماً ويَتْماً، وحكى الفرّاء: يتُم - بالضّمّ، والغريب: أنّه جمع يُتْمان، ويُتمان: كنُدمان ونديم"[7]، قال الأصمعي: " اليتم في النّاس، من قبل الأب، وفي غير النّاس: من قبل الأمّ، وقال ابن الأنباريّ: قال ثعلب: اليتم معناه في كلام العرب: الانفراد، فمعنى صبيّ يتيم: منفردٌ عن أبيه"[8].

المسكين المعدم، هو الّذي لا يملك قوت يومه

4) ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾: أصل مادّة (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحَرَكَةِ[9]، والمِسْكِينُ، قيل: هو الّذي لا شيءَ له،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/217، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/213.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/128.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2 /128.
(4) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/354.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/243.
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/227.
(7) الكرمانّي، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 1/213.
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/84.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سَكَنَ).

وهو أبلغُ من الفقير، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79]، فإنّه جعلهم مساكين بعْد ذهابِ السّفينة[1]، قال الزّمخشريّ: "المسكين: الدّائم السّكون إلى النّاس؛ لأنَّه لا شيء له"[2]، وأصله دائم السّكون[3]، وفي هذا المضمار، قال أهل اللّغة: المسْكينُ: الّذي لا شيء له، والفقيرُ: الّذي له شيءٌ يكفيه، وقال يونس: قلت لأعرابيّ: أفقيرٌ أنت؟ قال: لا، بل مسكينٌ، فكلُّ مسكين فقيرٌ، وليس كلُّ فقير مسكينًا[4]، "والمساكين المحاويج الّذين أقعدهم العجز عن طلب ما يكفيهم، وهو جمعُ مسكين، سُمّي بذلك؛ لأنّه دائمُ السُّكون إلى النّاس؛ ولأنّهُ لا شيْء لهُ "[5].

مـن مـصـارف الـزّكـاة ابـن السّبـيـل، ولـو كان غنيًّا في بلده

5) ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: "﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وجُعل ابنًا للسّبيل لملازمته له، كما يقال للصّ القاطع: ابن الطّريق، وقيل: هو الضّيف؛ لأنّ السّبيل يرعف به"[6]، قال ابن جرير: "وإنّما قيل للمسافر: ابن السّبيل؛ لملازمته الطّريق -والطّريق هو السّبيل- فقيل لملازمته إيّاه في سفره: ابنه، كما يقال لطير الماء: ابن الماء، لملازمته إيّاه، وللرّجل الّذي أتت عليه الدّهور: ابن الأيّام واللّيالي والأزمنة"[7]، وقيل: ابن السّبيل"المسافر يجتاز بك مارًّا؛ قاله مجاهد، وقال الضّحاك: هو الضّعيف، والسّبيل: الطّريق، وابنه صاحبه الماشي فيه، فله حقٌّ على من يمرّ به، إذا كان مستقرّه في غير معصية، وأضيف إلى الطّريق؛ لأنّه إليها يأوي، وفيها يبيت"[8]، وجُعل المسافر ابنًا للسّبيل؛ لأنّه يلزم الطّريق، ولا ينفكّ عنه.

الـسّـائـل مَـنْ ألجأته الحاجة إلى الـسّـؤال والتّكفّف

6) ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: السّؤالُ: استدعاء معرفة، أو ما يؤدّي إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (سَكَنَ).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/219، ومعنى: (يرعف به): أي يتقدّم به ويُبرزه للمقيمين.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(4) مكيّ بن أبي طالب: الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/3039.
(5) الهرريّ: تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/125 - 126.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/346.
(8) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1323.

المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، ويعبّر عن الفقير إذا كان مستدعيًا لشيء بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10][1]، "أي: الّذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السّؤال"[2]. فالمراد بالسّائلين: "الّذين ألجأتهم الحاجة إلى السُّؤال"[3].

من وجوه البرّ إنفاق المال في العتق وفكّ الرّقاب

7) ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: "الرِّقاب: جَمْعُ الرَّقَبَةِ، وَهِيَ مُؤَخَّرُ أَصْلِ العُنُقِ، واشْتِقاقُها مِنَ المُراقَبَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَكانَها مِنَ البَدَنِ مَكانُ الرَّقِيبِ المُشْرِفِ على القَوْمِ، وَلِهَذا المَعْنَى يُقالُ: أَعْتَقَ اللَّهُ رَقَبَتَهُ، وَلا يُقالُ: أَعْتَقَ اللَّهُ عُنُقَهُ؛ لأنَّه لَمّا سُمِّيَتْ رَقَبَةً؛ كَأَنَّها تُراقِبُ العَذابَ"[4].

وَمعنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: "وفي معاونة المكاتبين حتى يفكُّوا رقابهم"[5]، "في ابتياع الرّقاب وإعتاقها"[6]، "يَعْنِي: فَكَّ الرِّقابِ"[7]، يراد به: "العتق وفكُّ الأسرى"[8].

8) ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: من الصّبر، و" الصّبر: هو كفّ النّفس وحبسها، عن التّعاطي في جميع المحرّمات المحظورات، وعلى ذلك يُخرَّج قول أهل التّأويل: الصّابرين على أمر الله وطاعاته، وعلى الأذى والمصائب، يكفّون عن جميع ما لا يحلّ فيه، ويرون ذلك من تقديره"[9]، وأصل الصّبر: الحبس للنّفس عن الشّيء، قولاً، أو فعلاً، أو مرغوبًا من المتع و الممتلكات، أيًا كان نوعها أو نفاستها، والمعنى: والحابسين أنفسهم عن كلّ ما يكرهه الله ﷻ، والصّبر نصف الإيمان، وجوهر التّعامل مع الحياة الدّنيا، وتقلّباتها، وامتحاناتها، وقد وُصف به المؤمنون في هذه الآية وغيرها، وجُعل أجْرُ الصّبر، موكولًا إلى الله وحده؛ لِعِظَم الجزاء به، والتّكريم لمن يلتزمه ويتحرّاه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزّمر: 10].

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 83.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/218.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(6) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/220.
(7) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/200.
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/243، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/199.
(9) الماتريدي، تفسير الماتريديّ (تأويلات أهل السُّنة): 8/385.

حيـاة البـشر قُلّبٌ بين السّراء والضّرّاء

9) ﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: لفظان متلازمان غالبًا، والبأساء: هي "الفقر والشّدّة"(1)، وقالوا: "البأساء: (فَعْلاء) من البؤس، وهو سوء الحال والفاقة"(2)، "وَهُوَ اسْمٌ مِنَ البُؤْسِ"(3)، ولفظ "الضّرّاء، بِالفَتْحِ: ضِدُّ النَّفْعِ، والضُّرُّ، بالضّم: الزّمانة"(4)، وهي المرض ومصائب البدن"(5)، والمشهور أنّ معناهما الفقر والمرض، وأنّهما اسمان مشتقّان من البؤس والضّرّ، وألفهما للتّأنيث، فهما اسمان على (فَعْلاء)، وليس لهما (أفعل)؛ لأنّهما ليسا بنعتين، والبأساء في أصل اللّغة، نقيض النّعماء"(6)، "وأمّا أهل العربيّة؛ فإنّهم اختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: البأساءُ والضّرَّاءُ مصدر، جاء على (فعلاء)، ليس له (أفعل)؛ لأنّه اسم، كما قد جاء (أفعل) في الأسماء، ليس له (فعلاء)، نحو أحمد، وقد قالوا في الصّفة: (أفعل)، ولم يجئ له (فعلاء)، فقالوا: أنت من ذلك أوجل، ولم يقولوا: وجلاء، وقال بعضهم: هو اسم للفعل، فإنّ البأساء: البؤس، والضّراء: الضّر، وهو اسم يقع: إن شئت لمؤنّث، وإن شئت لمذكّر، كما قال زهير:

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ***كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

يعني: فتنتج لكم غلمان شُؤْم"(7).

لا يثبـــت حـين البـأس إلّا الأبطـــال الصّناديد

10) ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾: "﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ وقت شدّة القتال، أي: "لا يفرُّ من الأعداء"(8)، "وَمَعْنَى البَأْسِ في اللُّغَةِ: الشِّدَّةُ، يُقَالُ: لا بَأْسَ عَلَيْكَ في هَذا، أَيْ: لا شِدَّةَ، ثُمَّ تُسَمَّى الحَرْبُ بَأْسًا لِما فِيها مِنَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/244.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 3/9.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/220.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/129.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/244.
(6) زاده: حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/87.
(8) الصّاويّ، حاشية الصّاوي: 1/75.

الشّدَّة، والعَذابُ يُسَمَّى: بَأْسًا لِشِدَّتِه"[1]، "وأمّا البأسُ؛ فشدّةُ القتالِ خاصّةً"[2]، وقال علي ﷺ: كنّا إذا احمرّ البأس؛ اتقينا برسول الله ﷺ فكان أقربنا إلى العدوّ؛ إذا اشتدّت الحرب[3]، والبأس شدّة القتال خاصّة، وهو في الأصل مطلق الشّدة، يقال: لا بأس عليكم في هذا، أيْ: لا شدّة، وعذابٌ بئيسٌ، أي: شديد، وتسمّى الحرب: بأسًا؛ لما فيها من الشّدّة، والعذاب - أيضًا -: بأسًا؛ للشدّة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: 84]، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: 29][4].

11) ﴿صَدَقُواْ﴾: "﴿صَدَقُواْ﴾ كانُوا صادقين جادّين في الدّين"[5]، "وتحتمل اللّفظة أيضًا صِدْقَ الأخبار"[6]، "أَيْ: أَهْلُ هَذِهِ الأَوْصافِ، هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا في إيمانِهِمْ"[7]، "وَصَفَهُمْ بِالصِّدْقِ والتَّقْوَى في أُمُورِهِمْ، والوَفاءِ بِها، وَأَنَّهُمْ كانُوا جادِّينَ"[8]، كان الرّبيع بن أنس يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، قال: فتكلّموا بكلام الإيمان، فكانت حقيقتُه العمل، صَدقوا الله، قال: وكان الحسن يقول: هذا كلام الإيمان، وحقيقتُه العمل، فإن لم يكن مع القول عملٌ فلا شيء"[9].

الصّدقُ يهدي إلى البرّ، والبرُّ يهدي إلى الجنّة

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

البرّ ليس بالتّوجُّه للقبلة فقط، ولكنَّ الخير في شموليّته وعمومه

ليس الخير مقتصِرًا على الاتّجاه إلى جهة المشرق أو المغرب، ولكنّه في جملةٍ من الأعمال، فمِنَ البِرّ مَن آمن باللّه إلهًا واحدًا، وآمن بيوم القيامة، وبجميع الملائكة، والكتب المنزلة، والأنبياء، وبذلَ المال على حبّه لذوي قرابته، واليتامى وذوي الحاجة، والغريب

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/220، والخازن، لباب التّأويل: 1/106.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/251.
(3) الثّعلبيّ: الكشف والبيان: 2/63.
(4) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/63.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/244.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/220.
(8) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/200.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 3/356.

الَّذي انقطع في السّفر عن أهله ووطنه، والّذين ألجأهم الفقر لِسؤال النّاس، وصرف المال في تحرير الرّقاب من الرّق والأسر، وإقامة الصّلاة، ودفع الزّكاة الواجبة، والّذين يوفون بعهدهم، ويصبرون على الفقر والمرض، وعلى شدّة القتال، فلا يفرّون من الزّحف، أولئك المتّصفون بهذه الصّفات، هم الّذين صدقوا الله في إيمانهم وأعمالهم، وأولئك هم المتّقون الّذين امتثلوا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم الله عنه[1].

البرّ عقيدةٌ بالصّدق، وعبادةٌ للحقّ، ومعاملةٌ للخلق

والآيةُ جامعة للكمالات الإنسانيّة بأسرها، وهي منحصرة في ثلاثة أشياء: صحّة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النّفس[2]، وفيها من شُعَب الإيمان بالله ولواحقه، وصلة الأرحام والمحتاجين، وأداء العبادات، والاتّصاف بمجمل الأخلاق المأمور بها[3]، وهي آية عظيمة تضمّنت سِتَّ عَشْرَةَ قاعِدَةً مِنْ أُمَّهاتِ الأَحْكام[4]، وقال أبو زهرة: "وقد ذكر الله تعالى صنوف البِرّ كلّها في هذه الآية الكريمة، وكانت بحقّ آية البِرِّ؛ لأنَّها جمعت أطرافه، ونواحيه كلَّها، وهي من أجمع الآيات للتّكليفات الدّينيّة "[5].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه العدول إلى الفصل في الآية:

وجه الفصل ابتداء نصف السورة الثاني المتعلّق بتبيين أحكام الدِّين

في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ ابتداء نصف السورة الثاني وهو متعلِّق بتبيين غالب أحكام الدِّين، وأمّا النّصف الأوّل فمتعلِّق بأصول الدِّين وقبائح اليهود[6]. فهو تعالى يضع في آية واحدة قواعدَ التّصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 27، والتّفسير الميسّر: 27.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(3) السّيوطي، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 37.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/241.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/518.
(6) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: 132.

الصحيح، ويحدد صفة الصادقين المتقين، وتقرير الحقيقة الكبرى حول هذه القضية وحول سائر القضايا الجدلية التي يثيرها اليهود حول شكليات الشعائر والعبادات.

دلالة لام الجنس في لفظ ﴿ٱلۡبِرَّ﴾:

جعل الخطاب عامًّا لكلّ النّاس؛ لنفي اقتصار البِرّ على عملٍ ما

اخْتلفَ المفسِّرون في بيانِ المرادِ بالخطابِ: فمنهم مَنْ جعله لأهل الكتاب؛ لأنّ اليهود تُصلّي قِبلَ المغرب إلى بيت المقدس، والنّصارى قِبَل المشرق؛ وذلك أنهم أكثروا الخوضَ في أمر القبلة حين حوّل رسول اللَّه ﷺ إلى الكعبة"[1]، ومنهم مَنْ جعله خطابًا للكلِّ، ومنهم من جعله للمؤمنين، والمعنى ليس البِرَّ الصّلاةُ وحدها[2]؛ لاغتباط المؤمنين في هَذِهِ القِبْلَةِ عند تحويلها، وتشَدّدهم فيها، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ الغَرَضُ الأَكْبَرُ في الدّينِ، فذُكّروا بأنّ البِرَّ المَطْلُوبَ لَيْسَ هو أَمْرَ القِبْلَةِ، بَلِ الخِصالُ المذْكورة التي عدَّها[3]، فالظّنُّ بأنّ الدّين مقتصرٌ على جهة القبلة، تقزيمٌ لمقاصديّته الواسعة.

نفي المقصور بالتّعريف بلام الجنس:

المنفيُّ (جنسُ البِرّ) منحصرٌ في تولِيَة الوجوه، مع انحصار البِرّ الكامل فيها

إن جُعِلَ المعرّف بلام الجنس مبتدأ؛ فهو مقصور على الخبر تحقيقًا، أو مبالغة، نحو: (الأمير زيدٌ)، وإن جعل خبرًا؛ فهو مقصور على المبتدأ تحقيقًا، أو مبالغة، نحو: (زيدٌ الأمير)، فقوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، يحتمل أن يكون المنفيُّ جنس البِرّ منحصرًا في تولِيَة الوجوه، وأن يكون المنفيّ انحصار البِرّ الكامل فيها[4].

فـ"القصر مُستفادٌ من تعريف البِرّ بلام الجنس، فيفيد قصر المسند إليه على المسند، والنّفي متوجّه إلى القصر، أي: ما أنتم

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/ 217، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/211.
(4) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/428.

عليه أيها المسلمون من أمر القبلة من البرّ، لكنّ البِرّ ليس بمقصور عليه، فلا تكثروا الخوض في شأنه"[1].

توجيه قراءة (البِرّ) على الرفع والنصب:

وجه الرفع على الابتداء في حالة النفي دعوة للإصغاء إلى الخبر

وقرأ الجمهور ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ برفع ﴿ٱلْبِرُّ﴾ على أنه اسم ليس والخبر هو ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ وقرأه حمزة وحفص عن عاصم بنصب ﴿ٱلْبِرَّ﴾[2]. على أن قوله: ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ اسم ليس مؤخر، ووجه قراءة رفع ﴿ٱلْبِرُّ﴾ أنه أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب للجميع، فإذا جعل مبتدأ في حالة النفي أصغت الأسماع إلى الخبر.

وجه النصب تشوّق إلى المبتدأ، سعيًا إلى تقرُّرِ عمله

وأما توجيه قراءة النَّصب فلأنَّ أمر استقبال القبلة هو الشغل الشاغل لهم فإذا ذكر خبره قبله ترقّب السامعُ المبتدأ فإذا سمعه تقرر في علمه[3].

علّة تقديم خبر ليس على اسمها:

العلم بالمجهول محطّ العناية والغاية، والتقديم لأجلهما أولى

إنّ تولّي الوجوه في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أمرٌ معلومٌ، والحكم على هذا التّولي بالبرّ نفيًا أو إثباتًا هو المجهولُ، فلا جرم أنَّ ما ليس بمعلوم يكون خبرًا لما هو مَعْلومٌ، والأعرفُ أحقُّ بالاسميّة، "قال ابن عرفة: و﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ اسم ليس، إمّا لكون (أَنْ) وما بعدها أعرفَ المعارف، أو لأنّ التّولية معلومةٌ، والبرّ مجهولٌ، أي: ليست التّولية برًّا"[4]، فقدّم المجهول لِعلم المخاطب بالمؤخّر وجهلِه بالمقدّم؛ وبذا يكون العلم بالمجهول محطّ العناية، والغاية، والتقديم لأجلهما أولى.

تأخير الأعرف لكونه أحقّ بالاسميّة، وأنّ فيه طولا

وقُدِّم خبرُ ليس، وأُخّر اسمها (المصدر المؤوّل)؛ لأنّه أعرف من المحلّى باللّام ﴿ٱلْبِرَّ﴾؛ ولكونه يُشبهُ الضمير من حيثُ إنَّه لا يوصف

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 4/456.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128-129.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.

ولا يوصف به، والأعرفُ أحقُّ بالاسمية؛ ولأن في الاسم طولاً قُدِّم الخبر عليه، فلو روعيَ الترتيبُ المعهود لَفاتَ تجاوبُ أطرافِ النظم الكريم[1].

سرّ تقديم المشرق على المغرب:

تقديم المشرق رعيٌ لأوّليّة الترتيب، أو لعقيدة اليهود في التوجُّه غربًا إلى بيت المقدس

قدّم المشرق على المغرب في قوله: ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مراعاة للترتيب المتفرِّع على ترتيب الشروق والغروب، أو لأنَّ توجّه اليهودِ إلى المغرب ليس لكونه مَغرِباً بل لكون بيتِ المقدس يقع في جهة الغرب من المدينة المنورة، فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجُّه إلى تينك الجهتين[2].

توجيه الحقيقة والمجاز بذِكْرِ المشرق والمغرب:

وجه الحقيقة أنَّها قبلة اليهود وقبلة النصارى؛ لإبْطال تَهْوِيلِهما على المُسْلِمِينَ حِينَ اسْتَقْبَلُوا الكَعْبَةَ

المراد بالمشرق الحقيقة، إشارَةً إلى قِبْلَةِ النَّصارَى؛ لأنّهم يستقبلون مشرق الشّمس، والمراد بالمغرب الأفق؛ لأنّ اليهود إنمّا يستقبلون بيت المقدس، وهو في جهة المغرب[3]، والغرض " إبْطال تَهْوِيلِ الفَرِيقَيْنِ على المُسْلِمِينَ حِينَ اسْتَقْبَلُوا الكَعْبَةَ، أو هو لكلّ من يسمع الخطاب"[4].

وجه المجاز التّعميم، لا التعيين بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ

أو أنّ اختصاص المشرق والمغرب؛ للتّعميم، لا لتعيين السّمْتَين[5] بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ مجازًا، وهذا خلاف الظّاهر[6]، وهو "اقْتِصارٌ على أَشْهَرِ الجِهاتِ"[7]، فوجه المجاز المقصدُ، أي: التّوجّه لا الوجهات، وفيه اقتصارٌ على أشهر الجهات.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/514.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.
(5) الطيّبي، فتوح الغيب: 3/205.
(6) القونوي، حاشيّة القونوي على تفسير البيضاويّ: 4/456.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.

بيان الدّلالة الإيحائية في ذكر الجهتين:

في الآيـة دلالـةٌ على أنّ المراد من القبلة الجهة، لا ذات الكعبة

وفي الآية إيماءٌ لصحَّة القول: بأنّ المطلوب في القبلة الجهة لا العين[1]، وهو المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: 144]، وشطر المسجد الحرام، نحوه وقصده وتلقاؤه، كما قال الهذليّ:

إِنَّ العَسِيرَ بِهَا دَاءٌ مُخَامِرُهَا *** فَشَطْرُهَا نَظَرَ العَيْنَيْنِ مَحْسُورُ[2]

توجيه الإخبار عن المصدر باسمِ الذّاتِ:

الإخْبَارُ عَنِ المَصْدَرِ باسْمِ الذّاتِ لِلْمُبالَغَةِ

جاء في التّفسير البسيط بخصوص قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: "﴿ٱلْبِرَّ﴾ مصدر، ولا يخبر عن المصادر بالأسماء، و﴿مَنْ﴾ اسم"[3]، ولكون المصدر معنى مجرّدًا، فإنّه لا يتأتّى أن يُسند إليه اسم، إلّا على جهة المبالغة، أو تقدير محذوف،[4]."وَقَوْلُهُ: وَلكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ إخْبارٌ عَنِ المَصْدَرِ باسْمِ الذّاتِ لِلْمُبالَغَةِ"[5]، وعلى هذا يكون كُنْهُ معناه " تحقيقٌ للحقّ بعد بيان بطلان الباطل، وتفصيلٌ لخصال البرّ، ممّا لا يختلف باختلاف الشّرائع، وما يختلف باختلافها، أي: ولكن البرّ المعهود – الّذي يحِقّ أن يُهتَمَّ بشأنه، ويُجَدَّ في تحصيله– بِرُّ مَنْ آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك"[6].

وجـه الإخبـار إفـادة أنّ البرّ اتّحاد الإيمان بـأعـمـالـه، وتلبّس المؤمن بهما

بيَّن محمد رشيد رضا نكتة اختيار الإخبار باسم الذات على قول: (ولكن البرّ هو الإيمان بالله) بقوله: " وهذه النكتة مفهومة من العبارة؛ فإنها تمثِّل لك المعنى في نفس الموصوف به فتفيدك أنّ البرَّ هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتّحادهما، وتلبُّس المؤمن البارِّ بهما معًا، من حيث إنَّ الإيمان باعثٌ على الأعمال، وهي

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/514.
(2) تفسير الطّبريّ: 2/659، شرح أشعار الهذليين، ص: 207.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/515.
(4) في وجوه الخلاف في إعراب لفظ (البر)، ينظر: السّمين، الدّرّ المصون: 2/245-246.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/193.

منبعثةٌ عنه وأثرٌ له تُستمدُّ منه وتمدّه وتغذيه، أي: أنها تمثّل لك المعنى في الشّخص، أو الشّخص عاملًا بالبِرّ، وهذا أبلغ في النفس هنا من إسناد المعنى إلى المعنى، ومن إسناد الذات إلى الذات كما هو مَذوقٌ ومفهوم"[1].

فنُّ الإيجاز بحذف مضاف:

وجه الاستغناء بالمذكور إظهار أنّ كلّية البرّ ممثلّة ببرّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

في الآية فنّ من فنون البلاغة صورته الإيجاز بحذف المضاف، وهو من إيجاز الحذف البليغ، الذي يعلو بالكلام إلى أعلى درجات البيان[2]، والتقدير: وَلَكِنَّ البِرَّ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"على تأويل حذف المضاف، أي: برّ من آمن[3]، وَوَجْهُ هَذا التّقْدِيرِ: الفِرارُ عَنِ الإِخْبارِ بِاسْمِ العَيْنِ، أوالجثّة (من آمن) عَنِ اسْمِ المَعْنَى (البرّ)[4]، و"مَعْناهُ: وَلَكِنَّ البِرَّ الَّذِي هُوَ كُلُّ البِرِّ الَّذِي يُؤَدِّي إلى الثّوابِ العَظِيمِ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"[5].

بلاغة تقديم الإيمان على اليوم الآخِر وإيتاء المال، وأفعال الجوارح:

قُدِّم الإيمانُ باللهِ على اليوم الآخر لأنَّ الإيمانَ باليوم الآخر متفرّعٌ منه، ومتحصَّلٌ عنه

"لما كان الإيمان باليوم الآخر، متفرّعًا على الإيمان بالله؛ لأنّا ما لم نعلم باستحقاق الألوهيّة، وقدرته على جميع الممكنات، لا يمكننا أن نعلم صحّة الحشر والنّشر، ولَمَّا كان الإيمان به محرِّكًا وداعيًا إلى الانقياد لله في جميع ما أمر به، ونهى عنه، خوفًا وطمعًا؛ ذكر الإيمان به عقيب الإيمان بالله"[6]. فهو تصديق لما أمر الله به، وسلوان للمحسن العابد، وإنذار للمشرك المكذّب، والمعاند المستكبر الجاحد، وقد تبيّن له الحق[7].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/90.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/518.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/214.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/199.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/214، والواحديّ، التّفسير البسيط: 3/515 وما بعدها.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/429.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/519.

قَدَّم الإيمانَ على إيتاء المال تقديمَ الأصـل على الفرع، والسّبب على المسبّب

"وإنما قَدَّم الإيمانَ؛ لأنَّه رأسُ الأعمالِ الدّينيةِ، وثَنَّى بإيتاء المالِ؛ لأنَّه أَجَلُّ شيء عند العرب، وبه يَتَمَدَّحُون، ويفتخرون بفكِّ العاني، وقِرى الضِّيفان، ويَنْطِقُ بذلك نظمُهم ونثرُهم"[1]، فـ"أول البِرّ وسنامه وأصله: الإيمان، وهو التّصديق والإذعان، وأوّل من يجب الإيمان به: اللّه، فالإيمان به هو لبّ الإيمان كلّه"[2]. و"أساس كلّ برّ ومبدأ كل خير"[3].

تقديم الإيمانِ على أَفْعالِ الجَوارِحِ؛ لكونها أشرفَ منها

وقُدِّمَ الإيمانُ على أَفْعالِ الجَوارِحِ، وَهُوَ إيتاءُ المالِ، والصّلاةُ، والزّكاةُ؛ لِلتَّنْبِيهِ على أَنَّ أَعْمالَ القُلُوبِ أَشْرَفُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَعْمالِ الجَوارِحِ[4]، و" لأنَّ أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنّما تنشأ عن الإيمان"[5].

تقديم الإيمان بالله واليوم الآخر على الملائكة والكتب والرّسل:

المقصود بالبعثات أحرى بالتّقديم

وقدّم الإيمان باللّه واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل؛ لأنّه المقصود من البعثات، فكان أحرى بالتّقديم[6]. وحال المؤمنين أنّ الإيمان باللّه، ورجاءَ النّجاة في الآخرة أصلُ سَعْيِهم وعنوانُ فلاحِهم.

توجيه متشابه اللفظ:

البرُّ مراعاة الله، ومراعاة الآخرة، ثـم مـراعـاة غيرهما

قُدِّمَ هنا ذكر (اليوم الآخر) وأُخِّرَ في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: 136]؛ لأجل أنّ الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعتني بها، وهي أبعد الأشياء عن الحقائق عنده، فلذلك أخّره في آية النساء، ولمّا ذكر هنا حال المؤمنين، والمؤمنُ

(1) السّمين، الدّر المصون: 2/249.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/519.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/90.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/215.
(5) ابو حيان، البحر المحيط: 2/5.
(6) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 283.

أقربُ الأشياء إليه أمرُ الآخرة، وكلّ ما يفعله ويتحرَّاه فإنه يقصد به وجه الله تعالى، ثم أمرُ الآخرة؛ فقدَّمَ ذكره هنا تنبيهًا على أنّ البرَّ مراعاة الله، ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما[1].

سرّ تقديم الملائكة والكتب على الرّسل:

المُراعَى في هذه العبارة ترتيبُ الوُجُود الخارجيّ، لا ترتيبُ الاعتبار الذّهنيّ

قدّم لفظ الملائكة والكتب على الرّسل ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنَّهُ لا طَرِيقَ لَنا إلى العِلْمِ بِوُجُودِ المَلائِكَةِ، وَلا إلى العِلْمِ بِصِدْقِ الكُتُبِ، إلّا بِواسِطَةِ صِدْقِ الرُّسُلِ؛ لأنّه قد روعيَ في التّرتيب في هذه العبارة من الآيَةِ الوُجُودُ الخارِجِيُّ، فقُدِّم الأسبقُ في الوجود؛ لأنّ المَلَكَ يُوجَدُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَحْصُلُ بِواسِطَةِ تَبْلِيغِهِ نُزُولُ الكُتُبِ، ثُمَّ يَصِلُ ذَلِكَ الكِتابُ إلى الرَّسُولِ؛ فالمُراعَى في هَذِهِ الآيَةِ: تَرْتِيبُ الوُجُودِ الخارِجِيِّ، لا تَرْتِيبُ الِاعْتِبارِ الذِّهْنِيِّ[2].

دلالة تَعْرِيفِ ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ﴾:

معنى أل في الكتاب لتعريف الجِنْسِ المُفِيدِ لِلِاسْتِغْراقِ؛ والمرادُ كلُّ الكتب المنزّلة

المقصود بـ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ جنس كتب الله المنزّلة، أو أنّ المراد: القرآن[3]، فتَعْرِيفُ الكِتابِ تَعْرِيفَ الجِنْسِ يفيد الاسْتِغْراقِ، أَيْ: آمَنَ بِكُتُبِ اللهِ مِثْلِ التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والقُرْآنِ[4]؛ "لأنّ جميع الكتب السّماوية واجبٌ الإيمان بها"[5].

وجه إفراد لفظ الكتاب:

إيثار إفراد الكتاب طلبًا للخفّة

وآثر التّعبير بالمفرد الدّالِّ على الجِنْسِ المُفِيدِ لِلِاسْتِغْراقِ طلبًا للخفّة؛ لأنّ لفظة النّبيين تبيِّن أنَّ المراد جنس الكتاب لا العهد، فامتنع اللّبس. قال ابن عاشور: "وَوَجْهُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ المُفْرَدِ أَنَّها أَخَفُّ مَعَ عَدَمِ التِباسِ التَّعْرِيفِ، بِأَنْ يَكُونَ لِلْعَهْدِ؛ لأنّ عَطْفَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/6.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/214-215، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/429.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(5) القونويّ، حاشيّة القونويّ: 4/458.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ قَرِينَةٌ على أَنَّ اللّامَ في ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلاسْتِغْراقِ، فَأُوثِرَتْ صِيغَةُ المُفْرَدِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللَّفْظِ"[1].

دلالة إيثار التّعبير بلفظ (النّبيّ) دون لفظ (الرّسول):

النّبيّ أعمُّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

(النّبيُّ) أعمّ من الرّسول، وثبوت الأعمّ، لا يستلزم ثبوتَ الأخصّ، فما يلزم من الإيمان بالنّبي الإيمان بالرّسول، ولذلك عدلَ عن التعبير بلفظ المرسلين، وذلك باعتبار الوصف؛ لأنّ وصف النّبوة أعمُّ من وصف الرّسالة، وترتّبَ الحكم هنا عليهم من حيث ذواتهم لا من حيث أوصافهم[2].

وجه تعريف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

بيان التّعريف شمول الأخصّ وهم الرّسل

وعرّف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على العموم، ليدخل في ضمنه الأخصّ؛ وهم الرّسل[3].

علّة تخصيص الإيمانِ بِهَذِهِ الأُمُورِ الخَمْسَةِ:

وجه التّخصيص أَنَّـهُ لَـمْ يَـبْـقَ شَيْءٌ مِمّا يَجِبُ الإِيـمـانُ بِـهِ إِلّا دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ الخمسة

خصَّص تعالى الإيمان بأمور خمسَة أجملَها في قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنّ هذه الخمسة "يدخل تحت كلّ واحد منها أشياء كثيرة، ممّا يلزم المؤمن أن يصدّق بها"[4]؛ فيدخل تحت الإيمانِ بِاللهِ: مَعْرِفَتُهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، وتحت اليَوْمِ الآخِرِ: المَعْرِفَةُ بِما يَلْزَمُ مِنْ أَحْكامِ الثَّوابِ والعِقابِ والمَعادِ، إلى سائِرِ ما يَتَّصِلُ بِذَلِكَ، وتحت المَلائِكَةِ ما يَتَّصِلُ بِأَدائِهِمُ الرِّسالَةَ إلى النَّبِيِّ ﷺ، وغيره مِمّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ مِنْ أَحْوالِ المَلائِكَةِ، وتحت الكِتابِ القُرْآنُ، وَجَمِيعُ ما أَنْزَلَ اللهُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/348.

أَنْبيائِه، وتحت النَّبِيِّينَ الإيمانُ بِنُبُوَّتِهِمْ، وَصِحَّةِ شَرائِعِهِمْ، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمّا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ إلّا دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ[1].

معنى الحرف (على) في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

لفظ (عَلَى) استعلاءٌ مجازيٌّ، أُريد به تحقُّقُ ثُبُوت مدْلُول مدْخُولها لمعْمُول مُتعلّقها

الحرف ﴿عَلَىٰ﴾، فيه اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ التَّمَكُّنُ مِنْ حُبِّ المالِ، وذلك بتحقيقِ ثُبُوتِ حبِّ المال لهم، وهي تُفيدُ مُفادَ كَلِمَةِ (مَعَ)؛ ليظهر فضلهم في إيتاء المال عَلى حُبِّهِ والشّحّ به[2]، "وَهِيَ في مِثْلِ هَذا المَقامِ لِلتَّنْبِيهِ على أَبْعَدِ الأَحْوالِ مِنْ مَظِنَّةِ الوَصْفِ، فَلِذَلِكَ تُفِيدُ مُفادَ كَلِمَةِ (مَعَ)"[3]، "وَلَيْسَ هَذا مَعْنًى مُسْتَقِلًّا مِنْ مَعانِي (عَلَى)، بَلْ هُوَ اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ تَحَقُّقُ ثُبُوتِ مَدْلُولِ مَدْخُولِها لِمَعْمُولِ مُتَعَلِّقِها؛ لأَنَّه لِبُعْدِ وُقُوعِهِ يَحْتاجُ إلى التَّحْقِيقِ"[4]، وهذا التّعبير يظهر فضلهم في إيتاء المال، فإيتاؤهم المال ليس مسبّبًا لانتفاء حاجتهم، وحبِّهم له، بل هم يحبّونه، ويعرفون قيمته كسائر النّاس، ورغم ذلك يسلِّطونه على هلَكَته في الحقّ، ولا يقعون أسارى حبِّه.

بيان مرجع الضّمير ودلالته في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

عود الضمير إمّا على المال مع حُبِّهم له، أو على حبّ الله وطاعته، وحُبّ الإيتاء

في مرجع الضّمير وجوه، "أظهرُها: أنّه يعودُ على المالِ؛ لأنَّه أبلغُ من غيرِه"[5]، والمُرادُ أَنَّهُ يُعْطِي المالَ مَعَ حُبِّهِ لِلْمالِ والشّحّ به، وَعَدَمِ زَهادَتِهِ فِيهِ، فَيَدُلُّ على أَنَّهُ إنَّما يُعْطِيهِ مَرْضاةً لِلَّهِ تَعالَى، وَلِذَلِكَ كانَ فِعْلُهُ هَذا بِرًّا"[6]، لكونك تُؤتيهُ، وأنْتَ صحيحٌ شحيحٌ، تأملُ العيش، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقُوم، قُلت: لفلان كذا، ولفلان كذا"[7]، ويحتمل عوده على: حبّ اللَّه،، أي: من تصدّق محبّة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/215.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(5) السّمين، الدّر المصون: 2/247.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218- 219، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.

في اللّه تعالى وطاعاته، أو على حبّ الإيتاء، يريد أنّه يعطيه، وهو طيّب النّفس بإعطائه"[1]، والإيتاء، أي: في وقت حاجةٍ من النّاس وفاقةٍ، فإيتاء المال حبيب إليهم.[2].

بلاغة الاعتراض بالتّتميم في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

وجه التّتميم المبالغةُ في بيان حرصهم على إيتاء المال على الرّغم من حبِّهِمْ له

توجيه عود الضّمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ إذا كان عائدًا على المال، أو الإيتاءِ؛ فالمصدر مضاف إلى المفعول، وَيَجِيءُ قَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ اعْتِراضًا بَلِيغًا أَثْنَاءَ القَوْلِ[3]، وأفاد هذا الاعتراض البليغ التتميمَ[4]، وحصولَ المبالغة في بيان حرصهم على إيتاء المال على الرّغم من حبِّهِمْ له، وتعلّقهم به[5].

سرّ ترتيب ورود من يستحقّ المال:

تقديم المستحقّ بحسب مراعاة الحال؛ فضلًا، وأحقّيّةً، وقدرةً على الإعالة

نجد أنّ السّياق قدّم ذوي القربى؛ لأنّهم أحقّ[6]، وإيتاؤهم أفضل[7]، قال رسول اللّه ﷺ: «صَدَقَتُكَ على المسْكينِ صَدَقَةٌ، وهي على ذي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ»[8]، وقدّم اليتامى الّذين هم غير الأقارب؛ لأهمّية إيتائهم؛ إذ ليس لديهم من يقوم بمؤنتهم[9]، والمراد بذوي القربى: مَنْ يَقْرُبُونَ مِنْهُ بِوِلادَةِ الأَبَوَيْنِ، أَوْ بِوِلادَةِ الجَدَّيْنِ[10].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218-219.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.

(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/243.

(4) التَّتْمِيمُ، ويسمى أيضًا الاحتراس، والاحتياط، وهو: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد، كقوله تعالى يصف الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: 8-9]. قالوا: عبارة: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ جاءَت تتميماً مفيداً، حصلت به المبالغة في أنّهم حريصون جدًّا على إطعام الطّعام على الرّغم من حبِّهِمْ له، وتعلُّقِ شَهْوَتِهم به، فالإطعام في هذه الحالة أبلغ في الدّلالة على ابتغاء مرضاة الله، وهو بسبب ذلك أعظم أجراً عند الله، فإنّ عبارة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، قيد لازم لإدْخال المطعم للطّعام في مرتبة الأبرار، وهي فوق مرتبة المتّقين الّذين يكفيهم أن يطعموا الطّعام الواجب عليهم أن يُطْعِموه، ولو كان هذا الطّعام غير محبوب لهم، ينظر: عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيّة: 2/88.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/206.

(6) الزّمخشري، الكشّاف: 1/219.

(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.

(8) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث سلمان بن عامر، الحديث رقم: (16234).

(9) القونويّ، حاشيّة القونويّ: 4/462.

(10) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/217.

إطلاق العامّ من ذوي القربى، وإرادة الخاصّ من فقرائهم ومساكينهم

وقد أشار الزّمخشريّ إلى أنّ المراد ليس كلّ ذوي القربى، ولا كلّ الأيتام، بل الفقراء منهم، فأطلق العامّ وأراد الخاصّ، ولا وَجْهَ لِقَصْرِ ذَلِكَ على ذَوِي الرَّحِمِ المُحَرَّمِ، قال: "وأطلق ذَوِي القُرْبى واليَتامى، والمراد الفقراء منهم، لعدم الإلباس"[1].

وجه إضافة ﴿وَٱبْنَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

جُعِلَ المُسافِرُ ابْنًا للسّبيل؛ لِلُزُومِهِ إيّاهُ

المراد بابن السبيل المُسافِرُ، أو الضّيْفُ؛ لأنَّه إنَّما وَصَلَ إلَيْكَ مِنَ السّبِيلِ، والسّبيل لِلطَّرِيقِ، وَجُعِلَ المُسافِرُ ابْنًا لَهُ؛ لِلُزُومِهِ إيّاهُ، كَما يُقالُ لِطَيْرِ الماءِ: ابْنُ الماءِ، وَيُقالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَتَتْ عَلَيْهِ السّنُونَ: ابْنُ الأيّامِ، وَ لِلشُّجْعانِ: بَنُو الحَرْبِ. وَلِلنّاسِ: بَنُو الزّمانِ[2].

السّرّ في إفراد ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وجمع الصّفات المذكورة:

سِرُّ إفراد (ابن السّبيل)؛ لِقلّتهم باعتبار الوجود الخارجيّ

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ جمع كلّ المذكورين: (ذَوِي القُرْبَى واليَتامَى والمَساكِينَ والسّائِلِينَ)، ولكنّه أفرد (ابن السّبيل)، وذلك لِكثرتهم باعتبار الوجود الخارجيّ، وقلّة ابن السّبيل[3].

سِرُّ إفراد السّائلين بالذّكر وتأخير ذكرهم:

إفراد السّائلين بالذّكر وتأخيرهم؛ لأنّهم أخصُّ وأقلُّ

المراد بالسّائلين "الّذين ألْجَأَتْهم الحاجة إلى السّؤال"[4]، وإلجاؤُهُم "مُستفادٌ من المقام؛ لأنّ المذكورين السّابقين لم يسألوا بقرينة المقابلة، وهؤلاء سألوا؛ لأنّ الفقر ألجَأهم، فأفردهم بالذّكر وأخّرهم؛ لأنّهم أخصُّ وأقلُّ[5].

ويجوز أنّ ذكرهم أُخِّر؛ لظهورهم بسؤالهم، وخفاء السّابقين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/217.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515-516.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 4/462.

لسكوتهم، والتّعفُّفُ محمُودٌ في شأن الحاجة والفقر، فقدّم الأفضل، أو أخّرهم لقلّتهم، فالفقراء بالوصف العامِّ أكثر من الفقراء الّذين يسألون.

وجـه تـأخـير ذكـر السّائلين لإعـلانـهـم السّؤال

المجاز المرسل بذكر الجزء وإرادة الكلّ في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾:

الرّقاب جمع رقبة، وهو العبد المملوك، وعبّر عنه بالرّقبة، من قبيل التّعبير بالجزء وإرادة الجميع، وكانت الرّقبة هي الجزء الدّالّ على الكلّ؛ لأنّها مظهر الخضوع في الحسِّ؛ إذ يُطأطئ العبد رقبته، خشوعًا وخضوعًا، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾"[1].

الـرّقـبـة في الإنـسـان هي مظهرُ الشّموخ أو الخضوع

قال محمد علي جميل في شرح ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: "جمع رقبة، وهي في الأصل العُنقُ، وتطلق على البدن كلّه، كما تطلق العين على الجاسوس، والمراد في الآية الأسرى والأرقّاء"[2]، وقال غيره: "والرّقبة مجازٌ عن الشّخص، فهُو من قبيل المجاز المرسل"[3].

وجه استعمال ﴿فِي﴾ مع الرّقاب دون الباقين:

وجيء بالحرف (في) مع لفظ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾؛ للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، وأنّ إيتاء المال بأن يعطيه ما يستعين به على ما تعهّد به لفكّ رقبته"[4]، فـ "أتى بـ ﴿فِي﴾ دون ما قبله؛ لأنّ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ لا يعطاهم ذلك لأنفسهم، بل يُؤدَّى عنهم؛ ليُعتقُوا بخلاف غيرهم، فإنّه يأخذ ذلك، ويتصرّفُ فيه"[5]، فاستعمال ﴿فِي﴾ "للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، أو للإيذان بأنّهم أحقّ بها وأقوى استحقاقًا؛ لأنّ ﴿فِي﴾ للظّرفيّة، أي: هم

استعمال (في) للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، أو للإيذان بأنّهم أحقّ بها وأقوى استحقاقًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/524-525.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/104.
(3) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/356.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/525.
(5) البسيلّي، التّقييد الكبير: ص: 283.

مواضعها الّتي يوضع فيها؛ لما فيها من الفكّ والإنقاذ من الرّقّ وإحداث الحرية"[1].

دفع التناقض في نفي أن يكون التّوجّه إلى القبلة أو الجهات من البرّ:

نَـفْـيُ الـبِرّ نَـفْـيٌ لِـكَـمـالِ الـبِرّ، وَلَـيْـسَ نَـفْـيًا لِأَصْلِهِ

إنَّه اللّه تعالَى نَفَى أَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ إلى القِبْلَةِ برًّا، ثُمَّ حَكَمَ بِأَنَّ البِرَّ مَجْمُوعُ أُمُورٍ أَحَدُها الصّلاةُ، والاسْتِقْبالُ أصلٌ فيها، فَيَلْزَمُ التَّناقُضُ، ودفعه أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ نَفْيٌ لِكَمالِ البِرِّ، وَلَيْسَ نَفْيًا لِأَصْلِهِ، كَأَنَّهُ قال: لَيْسَ البِرَّ كُلَّهُ هُوَ هَذا، فالبِرُّ: اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الخِصالِ الحَمِيدَةِ، واسْتِقْبالُ القِبْلَةِ واحِدٌ مِنْها، فَلا يَكُونُ ذَلِكَ تَمامَ البِرِّ[2].

نـفـي الـبِرّ عـن اسـتـقـبـال الـجـهـات من الـوسـائـل لا المـقـاصـد فـلا يكونَنَّ الاشتغال به غاية

وَنَفْيُ البِرِّ عَنِ اسْتِقْبالِ الجِهاتِ، مَعَ أَنَّ مِنْها ما هُوَ مَشْرُوعٌ، كاسْتِقْبالِ الكَعْبَةِ؛ لأنَّه مِنَ الوَسائِلِ لا مِنَ المَقاصِدِ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الاشْتِغالُ بِهِ قُصارَى هِمَّةِ المُؤْمِنِينَ، وَلِذَلِكَ أَسْقَطَهُ اللّهُ عَنِ النّاسِ، في حالِ العَجْزِ والنِّسْيانِ، وَصَلَواتِ النَّوافِلِ على الدّابَّةِ في السّفَرِ، وَلِذَلِكَ قالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾، فَإِنَّ ما تلا ﴿ءَامَنَ﴾ كُلَّهُ مِنْ أَهَمِّ مَقاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَفِيهِ جِماعُ صَلاحِ النَّفْسِ والجَماعَةِ، وَنَظِيرُه قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التَّوْبَة: 19] ولا شكّ أن السقاية وعمارة المسجد الحرام عَمَلًا برّ، فَيَكُونُ النَّفْيُ على مَعْنَى نَفْيِ الكَمالِ[3].

تقديم مصارف الزكاة للعناية بـهـا، وتـأخـير إيتائها للحثّ على إخراجها

علّة تقديم مصارف الزّكاة على ذكر الزّكاة:

وذكر الزّكاة مُجملًا بقوله ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعدما ذكرها مفصّلًا في قوله ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وذلك لأنّ مفهوميهما متقاربَين إجمالًا وتفصيلًا، وإنّما قدّم بيان المصْرفِ على ذِكر

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 4/463.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5 /213.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.

الزّكاة؛ لأنَّه هو المهتَمُّ بِشأنه[1]، فإنّ " الغرض من الأوّل: بيان مصارفها، ومن الثّاني: أداؤها، والحثّ عليها"[2].

السّرُّ في ذكر إيتاء الزّكاة، بعد ذِكر إيتاء المال:

عـطْـفُ الـزّكـاة على إيتاء المال، يفيد التّغاير في معنى كلّ منهما

وذكرُ إيتاء المال في هذه الوجوه، ثمّ تقفيته بإيتاء الزّكاة دليلٌ جليٌّ على أنّ إيتاء المال، ليس هو الزّكاة وحدها؛ بل هو جملة حقوق، تتضافر، وتتكامل، وهو ما يوسّع دائرة الإحسان والعطاء، وهو دليلٌ على أنّ في المال حقًّا سوى الزّكاة، أو أنْ يكون ذلك بيانٌ لمصارف الزّكاة، أو يكون حثًّا على نوافل الصّدقات والمبارّ[3]، فـ"ذكر الزّكاة هنا، دليل على أن ما تقدّم ليس بالزّكاة المفروضة"[4]، والمراد من إيتاء المال ليس الزّكاة؛ لِأَنَّهُ تَعالَى عَطَفَ الزّكاةَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وَمِنْ المعلوم تغاير المَعْطُوفِ والمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ فَثَبَتَ أَنَّ المُرادَ به غير الزّكاة[5].

نكتةُ توسيط الصّلاة بين المفصّل والمجمل:

توسيط الصلاة إيـــذانٌ بـأنّ التعظيم لأمر الـلـه يحسُنُ بـاكـتـنـافـه بالشَّفقة

أوقع الصّلاة واسِطةً للعقدِ بينَ المفصّل من أعمال البرّ، والمجمل منها في قوله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ليؤذِنَ بأنّ التّعظيم لأمر الله، إنّما يحسُنُ كلَّ الحسنِ إذا كان مكتَنفًا بالشّفقة على خَلْقِ الله[6].

بيان وجه الرّفع في قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾:

وجـه الـرَّفـع مـدحٌ لـهـم، أو وصفهم بكونهم أصحابَ بِرٍّ

في رفع ﴿ٱلْمُوفُونَ﴾ قولان: الأجود أنْ يكون مرفوعًا على المدح؛ لأنّ النّعت إذا طال، وكَثُرَ، رُفِعَ بعضُه، ونُصِب على المدح، والمعنى:

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/208، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/431.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/243-244.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/216.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/208، وزاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/431.

(هم الموفون بعهدهم)، وجائزٌ أنْ يكون معطوفاً على مَنْ، والمعنى: ولكن البرّ، وذو البِرّ: المؤمنون والموفون بعهدهم[1].

علّة إيثار التّعبير عنِ الوفاء بالعهد، والصّبر بالوصف دون الفعل:

إنّ الجمل السّابقة متعاطفة، فقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ عُطف عليها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، لكن عند الكلام على الوفاء والصّبر، غَيَّرَ أُسْلُوبَ الكلام معبّرًا بالوصف دون الفعل ولَمْ يَقُلْ: (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ) أو (وصبر) كما قال: ﴿وَأَقَامَ﴾، بل قال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، و﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأنّ إعطاء المال، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، أفعال مطلوبة في ذاتها، وهي تتجدد آنًا بعد آنٍ، وإن كانت واجبة على الدّوام، أمّا الوفاء؛ فالفضيلة فيه أنْ يكون صفة دائمة، لا أنْ يكون فعلاً، ثمّ ينقطع، بل يكون حلية يتحلّى بها المكلّف، وكذلك الصّبر، فالمطلوب فيه أنْ يكون صفة مستمرّة، تظهر في كلّ أعماله، من عبادات ومعاملات وأعمال، يصبر في كلّ أمر يقتضي الصّبر على النّعماء، فيرضى، ويشكر، ويصبر على الشّدة، فلا يفزع، ويصبر على الضّراء، فلا يئنّ[2].

الصّلاة والزّكاة أفعال تتجدّد، أمّا الوفاء والصّبر؛ فصفتان ثابتتان

وقصد التعبير بالاسميّة لأمرين، أحدُهما: لفظيٌّ، وهو أنَّ الصّلةَ متى طالت كان الأحسنُ أنْ تُعْطَفَ على الموصولِ دون الصّلة؛ لئلّا تطولَ، وَتَقْبُحَ، والثّاني: أنّه ذكر في الأولِ ما هو داخلٌ في حَيِّز الشّريعةِ وغيرُ مستفادٍ إلّا منها، والحكمةُ العقليَّةُ تقتضي العدالةَ دون الجَوْر، ولمّا ذكرَ وفاءَ العهدِ، وهو مِمّا تقضي به العُقولُ المجرّدةُ صار عطفُهُ على الأولِ أحسنَ[3]. وفيه دلالَةٌ على المُغايَرَةِ بين الإسميّة والفعليّة بِأَنَّ الأَوَّلَ: مِنْ عَلائِقِ حَقِّ اللهِ تَعالَى وَأُصُولِ الدّينِ، والثّاني: مِنْ حُقُوقِ العِبادِ[4].

الدّلالة بالاسم تقتضي الثّبوت، ممّا يتطابق مع الوفاء بالعهد

(1) الزّجاّج، معاني القرآن وإعرابه: 1/247، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/244، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/218.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/528.

(3) السّمين، الدّر المصون: 2/251.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

سرّ إيثار إفراد العهد على الجمع:

وعدل إلى إفراد العهد بقوله: ﴿بِعَهۡدِهِمۡ﴾، ولم يقل: (بعهودهم)؛ لأنّه أبلغ من الوفاء، فالعهد الواحد لا يستلزم الوفاء (بالعهود)، بخلاف العكس فإنّه يستلزم من ناحية أنّ المكلّف؛ إذا عاهد هو وغيره، ووفّى غيره بالعهود وبِهِ؛ فإنّه قد حصل الوفاء بالعهد على الإطلاق، بخلاف ما إذا عاهد وحده ولم يوفِ، فإنّه لم يقع في الوجود وفاء بالعهد، فتعظم العقوبة والذّم[1].

العهد الواحد مظنّة الإيفاء؛ لأنّه لا يستلزم الوفاء (بالعهود)

فائدة التّعبير بـ ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾:

أفاد قوله ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، سرعة الوفاء بالعهد[2]، وذلك لتقييده بالظّرْفِ، وَهُوَ ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، أَيْ: وَقْتَ حُصُولِ العَهْدِ، فَلا يَتَأَخَّرُ وَفاؤُهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

أفاد التعبير سرعة الوفاء بالعهد فلا يتأخّر طرفة عين

وَفِي التعبير تَنْبِيهٌ على وُجُوبِ الاحْتِياطِ، عِنْدَ بَذْلِ العَهْدِ، بِحَيْثُ لا يُعاهِدُ حَتَّى يَتَحَقَّقَ، أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الوَفاءَ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: فَإِنْ عَلِمُوا أَلّا يَفُوا؛ فَلا يُعاهِدُوا[3].

أفاد التعبيرُ التنبيهَ على لزوم الحذر عند المعاهدة

سرّ العدول الى نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نُصِبَ لفظ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الاختصاص والمدح؛ تنبيهًا على خصيصة الصابرين، وإظهارًا لمزيد شرف الصّبر في الشّدائد؛ وذلك لكون الصّبرِ من وجهٍ مبدَأَ الفضائِلِ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائلِ؛ إذ لا فضيلَةَ إلّا وللصّبرِ فيها أثرٌ بليغٌ؛ ولذلك غَيَّر إعرابَهُ على هذا المَقْصِد[4]، لأنّه إذا ذكرت صفات للمدح أو الذّمّ، وخولف الإعراب في بعضها، فذلك تفنّن، ويسمّى: قطعًا؛

النصب على الاختصاص والمدح إظهارٌ لمزيد شرف الصّبر والصابرين

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/378، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 2/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/133.

لأنّ تغيير المألوف يدلّ على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومزيد اهتمامٍ بشأنه[1].

كسر الإعراب هنا غرضُه تنبيهُ الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحقّ أن يُخالف عنده الإعراب؛ لأن الصّبر هو مطية كلّ هذه الأفعال، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإيتاء المال على حبّه هو الذي فاز وظفر، إذن كلّ ذلك امتحان للصبر. ومن هنا خصّ الله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص، وخصَّ الله الصبر بهذه الميزة؛ لأنّ التكليفات كلّها تعطي مشقّات على النفس، ولا يستطيع تحمّل هذه المشقات إلّا من يقدر على الصّبر، ومادام قد قدر على الصبر فكلّ ذلك يهون[2].

كسرُ تَراتُب الإعراب تنبيه على أنّ الصبر هو مطيّة كلّ ما تقدّم من أفعال

إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذمّ فالأحسن أن يُخالف إعرابها ولا تُجعل كلُّها جاريةً على موصوفها؛ لأنّ هذا من مواضع الإطناب وبه يكون المقصود أكمل؛ لأنّ الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنّه أنواع من الكلام وضروب من البيان[3].

العدول إلى نصب (والصابرين) وجهٌ من وجوه الإطناب

التّرقّي في الصّبر من الأدنى إلى الأعلى:

جاء التَّرتيبُ في قوله: ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾؛ لتحقيق (التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى)[4]، فـ"البَأْساءُ هو الفقر، والضّرّاءُ هو المرض، وحين البأس، أي: حين القتال، وهذا تَرَقّ؛ لأنّ

التّرقّي لونٌ بليغٌ من الأسلوب، ينشّطُ الذّهن، ويستوعبُ الدّلالة

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/146.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/741.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/133.
(4) من دواعي التّقديم والتّأخير: إرادة الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، أو إرادة البدء بالظّاهر، فما يتّصل به من الأسباب، وهكذا تسلسُلاً إلى الأسباب الباطنة الخفيّة، حتّى السّبب الأوّل، أو البدء بما هو بمنزلة الأساس فما يتّصل به، وهكذا تدرّجًا إلى الأعلى فالأعلى، حتّى القمّة، ومن أمثلة التّدرّج من الأدنى إلى الأعلى، قول الله ﷻ، مبيّنًا مراتب ودرجات المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]. ينظر: عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيّة: 1/391.

وقوع الفقر والحاجة في النّاس، أكثر من وقوع القتال، فالصّبر على القتال أشدّ لغرابته، وقلّة وقوعه، ودونه الصّبر على المرض، ودونه الصّبر على الفقر، ولهذا تجد الفقراء الأصحّاء، أكثر عددًا من المرضى، والمرضى أكثر عددًا من الفرسان المقاتلين"[1]، فمن المعلوم أنّ الفقر إذا اشتدّت وطأته؛ يضيق له الذّرع، ويكاد يفضي إلى الكفر، والضّرُّ إذا برح بالبدن، يضعف الأخلاق، حتّى لا يكاد المرء يحتمل ما كان يُسَرُّ به في حال الصّحّة، وأمّا حالة اشتداد الحرب؛ فهي على ما فيها من الشّدّة والتّعرُّض للهلكة، بخوض غمرات المنيّة يُطلب فيها من الصّبر، ما لا يُطلب في غيرها؛ لأنّ الظّفر مقرونٌ بالصّبر، وبالظّفر حِفْظُ الحقّ الّذي يناضل المجاهد في سبيل اللّه دونه، ويدافع عنه، ويحاول إظهاره، ويبتغي انتشاره[2].

السّر في التّعبير بـ ﴿فِي﴾ مع البأساء، و﴿وَحِينَ﴾ مع البأس:

استعمال (في) مع البأساء، و(حين) مع البأس ليفيد كمال الصّبر من أوّل القتال إلى آخره

وجه إيثار تعدية (البأساء) في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾، بالحرف ﴿فِي﴾، وعدم تعدية (البأس) به، ولمْ يعكس فيقول: (والصّابرين حين البأساء وفي البأس)؛ لأنّه لمّا كان وقوع القتال أقلّها وجودًا بالنّسبة إلى غيره؛ كان الصّبر عليه أغرب وأعجب، فالمراد بالصّابرين من حصل منهم الوصف الكامل من الصّبر، ولو عدّي بالحرف (في)؛ لتناول الصّابر في أوّل جزء من أجزاء القتال؛ لأنَّه حينئذ يصدق بأوّل جزء، فعُدِلَ إلى القول: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ ليفيد كمال الصّبر من أوّل القتال إلى آخره، وأمّا الفقر والمرض، فكلاهما أكثريّ الوقوع، فلا غرابة فيهما، فلم يحتج إلى التّنبيه على كمال الصّبر فيه[3].

وجه استعمال الحين (البأس) الإشعار بوقوع الحرب أحيانًا

زيادة الحين مع ﴿ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ في قوله: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ للإشعار بوقوعه أحيانًا وسرعة انقضائه[4]، أي: "أنَّ الحرب تجيء وقتًا بعد

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/517، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/128.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/98.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/517.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/283.

وقت، وليست مستمرّة، وإن استمرّت أمدًا طويلًا، تبدّل الرّجال بعد الرّجال، ولا يحارب الجيش كلّه"[1].

وجه الاستئناف في جملة التذييل:

الصّدق والتّقوى ثمرتان ضروريّتان لأفعال البرّ في هذه الآية

استأنف في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ ليبيِّنَ أنّه لا يستحقّ اسم البِرّ، إلّا من اجتمعت فيه هذه الصّفات، وأنّ من قام بتلك الأفعال، صدق في إيمانه، قال البقاعي: "ولـمّا كانت هذه الخلال أشرفَ خلال، أشار إلى شرفها بشرف أهلها، فقال مستأنفًا بيانًا؛ لأنَّه لا يستحقُّ اسم البِرّ إلّا من اجتمعت فيه هذه الخلال، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: خاصّة الّذين علَتْ هِمَمُهم، وعظُمت أخلاقهم وشيمهم، فوصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، أي: فيما ادّعوه من الإيمان، ففيه إشعارٌ، بأنّ من لم يفعل أفعالهم؛ لم يصدق في دعواه"[2].

الفرق الدّلالي بين خبرَي جملة التذييل:

التعبير بالفعل الماضي؛ لتحقُّقِ اتّصافهم بالصّدق، والتعبير باسم الفاعل للدلالة على ثبوت التقوى سجيّة لهم

بين عبارتي جملة التذييل المتعاطفَتين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، و﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، فرقٌ دلاليٌّ تحريره أنّ خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأولى: موصولٌ، وصلته فعلٌ ماضٍ ﴿صَدَقُواْۖ﴾؛ لتحقُّقِ اتّصافهم به، وأنَّ ذلك قد وَقَع منهم، واستقرَّ، وخبرُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الثّانية: اسمُ فاعل ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾، يدلُّ على الثّبوت؛ لبيان أنّ ذلك صار كالسَجِيَّةِ لهم، فضلا عن أنّه لو أتى به فعلاً ماضيًا، لَما حَسُنَ وقوعُه فاصلةً[3].

فائدة اسم الإشارة التّنويه إلى أنّ الأوصاف المذكورة هي علّة الحكم

فائدة تكرار اسم الإشارة:

"كرّر لفظ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ "تنبيهًا على أنّ كلّ وصف من هذا كافٍ في حصول المدح

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/529.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/10.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2 /251، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/213.

والثّناء، لا المجموع"[1]، و" لزيادة تنويه شأنهم"[2]، فاسم الإشارة الأولى والثّانية قُصِدَ بها الّذين اتّصفوا بالبرّ، حتّى كأنّهم هم البِرّ في أعمالهم المؤلّفة للقلوب، والمقرّبة للنّفوس، وصفاتهم المثبتة لقوّة الإيمان، وحسن العمل، والإشارة إلى الأوصاف فيها إيذان بأنّ هذه الأوصاف، هي علّة الحكم[3].

دلالة الحصر باستعمال الضّمير ﴿هُمُ﴾:

انحصار النّعت بالتّقوى في المتّقين؛ لاشتمالها على جميع أعمال البرّ

توسيط الضّمير في قوله تعالى﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ للإشارة إلى انحصار التّقوى فيهم واقتصارها عليهم[4].

وجه النعت بالمتقين:

النعت بالمتّقين إشعارٌ بأنّهم تكلّفُوا هذه الأفعال؛ لعظيم خوفهم من الله تعالى

في نعتهم بالمتّقين في قوله تعالى﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بأنّهُم تكلّفُوا هذه الأفعال؛ لعظيم خوفهم من اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[5]، ويلاحظ الحذف في الآية، فتقوى اللّه تتحقّق باتّقاء ما نهى اللّه تعالى عنه، وهي (محارمه)، وحذفها للعلم بها، فقوله: "﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: محارم اللّه"[6].

❁ الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

الفقير، والمسكين، والسّائل:

دلالة لفظي المساكين والسّائلين في بيان الدّلالة في الآية

"والمِسْكِينُ الفَقِيرُ الَّذِي أَذَلَّهُ الفَقْرُ، وَقَدِ اتَّفَقَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ: أَنَّ المِسْكِينَ غَيْرُ الفَقِيرِ، هُوَ أَقَلُّ فَقْرًا مِنَ الفَقِيرِ، وَقِيلَ: هُوَ أَشَدُّ فَقْرًا، وَهَذا قَوْلُ الجُمْهُورِ، وَقَدْ يُطْلَقُ أَحَدُهُما فِي مَوْضِعِ الآخَرِ؛ إِذا لَمْ يَجْتَمِعا"[7]، و"إِنَّ المَسَاكِينَ أَهْلُ الحاجَةِ، ثُمَّ هُمْ ضَرْبانِ: مِنْهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/518.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/351.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/529.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/351.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/10.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/207.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

مَنْ يَكُفُّ عَنِ السُّؤال، وهو المراد هاهنا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْأَلُ، وَيَنْبَسِطُ، وَهُوَ المُرادُ بِقَوْلِهِ: والسّائِلِينَ، وَإِنَّما فَرَّقَ تَعالَى بَيْنَهُما، مِنْ حَيْثُ يَظْهَرُ على المِسْكِينِ المَسْكَنَةُ، مِمّا يَظْهَرُ مِنْ حالِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ السّائِلُ؛ لأنَّه بِمَسْأَلَتِهِ يَعْرِفُ فَقْرَهُ وَحاجَتَهُ"[1]، "وَذَكَرَ السّائِلِينَ، وَهُمُ الفُقَراءُ، كَنًّى عَنْهُمْ بِالسّائِلِينَ؛ لأنّ شَأْنَ المَرْء أنْ تمنعه نَفْسُهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النّاسَ لِغَيْرِ حاجَةٍ غالِبًا، فالسّؤالُ عَلامَةُ الحاجَةِ غالِبًا"[2]، والسَّائلون يمتازون من غيرهم، من الأصناف المذكورة: أنَّ الفقر ألجَأَهم إلى السُّؤال.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/217.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»